بسم الله الرحمن الرحيم

٨١ - سورة التكوير

وتسمى سورة (إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ) وهى مكية وآيها تسع وعشرون . روى الإمام أحمد[١] عن ابن عمر : قال قال رسول الله ﷺ : من سره أن ينظر إلى يوم القيامة ، كأنه رأى عين فليقرأ (إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ، وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ . وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ) وهكذا رواه الترمذى[٢] .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) ، والحديث رقم ٤٨٠٦ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٨١ ـ سورة إذا الشمس كورت .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

[٢] (وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ)

[٣] (وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ)

[٤] (وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ)

[٥] (وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ)

[٦] (وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ)

[٧] (وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ)

[٨] (وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ)

[٩] (بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

« إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ » أى أزيلت من مكانها ، وأُلقيت عن فَلَكها ، ومُحى ضوؤها «وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ» أى تناثرت وانقضّت «وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ» أى رُفعت عن وجه الأرض، ونسفت . من أثر الرجفة والزلزال الذى قطع أوصالها «وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ» أى تركت مهملة لا راعي لها ولا طالب . والعشار جمع عُشَرَاء وهى الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر . وخصها ، لأنها أنفس أموالهم . أى فإذا هذه الحوامل التى يتنافس فيها أهلها أُهملت ، فتركت من شدة الهول النازل بهم ، فكيف بغيرها ؟ « وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ » أى جمعت من كل جانب واختلطت، لما دهم أوكارها ومكامنها من الزلزال والتخريب، فتخرج

هامة مذعورة من أثر زلزال الأرض وتقطع أوصالها «وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ» أى: ملئت بتفجير بعضها إلى بعض، حتى تعود بحرا واحداً. من (سجر التنور) إذا ملأه بالحطب. كقوله (وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ) وقيل : المعنى تأججت ناراً . قال القفال : يحتمل أن تكون جهنم فى قعور البحار ، فهى الآن غير مسجورة لقوام الدنيا . فإذا انتهت مدة الدنيا ، أوصل الله تأثير تلك النيران إلى البحار، فصارت بالكلية مسجورة بسبب ذلك. وأوضحه الإمام بقوله: وقد يكون تسجيرها إضرامها ناراً. فإن ما فى بطن الأرض من النار يظهر إذ ذاك بتشققها وتمزق طبقاتها العليا ، أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً ولا يبقى فى البحار إلا النار . أما كون باطن الأرض يحتوى على نار فقد ورد به بعض الأخبار. ورد أن البحر غطاء جهنم، وإن لم يعرف فى صحيحها. ولكن البحث العلمىّ أثبت ذلك . ويشهد عليه غليان البراكين وهى جبال النار . انتهى .

قال الرازىّ : واعلم أن هذه العلامات الستة يمكن وقوعها فى أول زمان تخريب الدنيا . ويمكن وقوعها أيضا بعد قيام القيامة . وليس فى اللفظ مايدل على أحد الاحتمالين . أما الستة الباقية فإنها مختصة بالقيامة . انتهى .

« وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ » أى قرنت الأرواح بأجسادها . أوضمت إلى أشكالها فى الخير والشر ، وصُنِّفَتْ أصنافاً ليحشر كل إلى من يجانسه من السعداء والأشقياء .

« وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ » يعنى البنات التى كانت طوائفُ العرب يقتلونهن . قال السيد المرتضى فى (أماليه) : الموءودة هى المقتولة صغيرة . وكانت العرب فى الجاهلية تئد البنات، بأن يدفنونهن أحياء، وهو قوله تعالى[1] (أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ) وقوله تعالى[2] (قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ). ويقال إنهم كانوا يفعلون ذلك لأمرين : أحدهما أنهم كانوا يقولون إن الإناث بنات الله . فَأَلْحَقُوا البنات بالله فهو أحق بها منا. والأمر الآخر أنهم كانوا يقتلونهن خشية الإملاق. قال الله[3] تعالى (وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ) الآية : قال المرتضى: وجدت أبا على الجبائىّ

(١) [١٦/ النحل/ ٥٩] . (٢) [٦/ الأنعام/ ١٤٠] . (٣) [٦/ الأنعام/ ١٥١].

وغيره يقول : إنما قيل لها موءودة لأنها ثقلت بالتراب الذى طرح عليها حتى ماتت. وفى هذا بعض النظر . لأنهم يقولون من الموءودة ـ وَأَدَ (يَئِدُ) (وَأْدًا) والفاعل (وَائِد) والفاعلة (وَائِدَة) ومن الثقل يقولون آدنى الشىء يؤودنى ، إذا أثقلنى ، أوْدا . انتهى .

وإنما قال (بعض النظر) لأن القلب معهود فى اللغة ، فلا يبعد أن يكون (وأد) مقلوباً من (آد) . وقال المرتضى : فإن سأل سائل ، كيف يصح أن يسئل من لاذنب له ولا عقل ، فأىّ فائدة فى سؤالها عن ذلك ، وما وجه الحكمة فيه ؟ والجواب من وجهين : أحدهما أن يكون المراد أن قاتلها طولب بالحجة فى قتلها ، وسئل عن قتله لها بأى ذنب كان ، على سبيل التوبيخ والتعنيف وإقامة الحجة . فالقتلة ههنا هم المسئولون على الحقيقة ، لا المقتولة ، وإنما المقتولة مسئول عنها . ويجرى هذا مجرى قولهم (سألت حقى) أى طالبت به ومثله قوله تعالى[1] (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) أى مطالباً به مسئولًا عنه . والوجه الآخر أن يكون السؤال توجه إليها على الحقيقة ، على سبيل التوبيخ له ، والتقريع له ، والتنبيه له ، على أنه لاحجة له فى قتلها . ويجرى هذا مجرى قوله تعالى لعيسى عليه السلام[2] (ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ) على طريق التوبيخ لقومه ، وإقامة الحجة عليهم . فإن قيل على هـذا الوجه : كيف يخاطب ويسئل من لاعقل له ولا فهم ؟ فالجواب أن فى الناس من زعم أن الغرض بهذا القول ، إذا كان تبكيت الفاعل وتهجينه وإدخال الغمّ عليه فى ذلك الوقت على سبيل العقاب ، لم يمتنع أن يقع . وإن لم يكن من الموءودة فهم له . لأن الخطاب ، وإن علق عليها ، وتوجه إليها ، والغرض فى الحقيقة بغيرها . قالوا وهذا يجرى مجرى من ضرب ظالم طفلًا من ولده فأقبل على ولده يقول له : ضربتَ ماذنبك وبأى شىء استحل هذا منك ؟ فغرضه تبكيت الظالم لاخطاب الطفل . والأوْلى أن يقال فى هذا : إن الأطفال ، وإن كانوا من جهة العقول لايجب فى وصولهم إلى الأغراض المستحقة ،

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٣٤] . (٢) [٥ / المائدة / ١١٦] .

أن يكونوا كاملى العقول ، كما يجب مثل ذلك فى الوصول إلى الثواب . فإن كان الخبر متظاهراً والأمة متفقة على أنهم فى الآخرة ، وعند دخولهم الجنان يكونون على أكمل الهيئات وأفضل الأحوال ، وأن عقولهم تكون كاملة ، فعلى هذا يحسن توجه الخطاب إلى الموءودة ، لأنها تكون فى تلك الحال ممن تفهم الخطاب وتعقله . وإن كان الغرض منه التبكيت للقاتل وإقامة الحجة عليه . انتهى .

قال الشهاب : والتبكيت قرره الطيبى ، بأن المجنى عليه إذا سئل بمحضر الجانى ونسبت له الجناية دون الجانى ، بعث ذلك الجانى على التفكر فى حاله وحال المجنى عليه . فيرى براءة ساحته ، وأنه هو المستحق للعقاب والعذاب . وهذا استدراج على طريق التعريض ، وهو أبلغ من التصريح . والمراد بالاستدراج سلوك طريق توصل إلى المطلوب بسؤال غير المذنب ونسبة الذنب له . حتى يبين من صدر عنه ذلك . كما سئل عيسى دون الكفرة ، وهو فن من البديع ، بديع . انتهى .

وقال الزمخشرى : وإنما قيل (قُتِلَتْ) بناء على أن الكلام إخبار عنها .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى الآية تعظيم شأن الوأد ، وهو دفن الأولاد أحياء . وأخرج مسلم[1] أنه ﷺ سئل عن العزل فقال : الوأد الخفى . وهى : وإذا الموءودة سئلت . انتهى .

وقد روى عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب فى هذه الآية قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ! إنى وأدت بنات لى فى الجاهلية . قال : أعتق عن كل واحدة منهن رقبة . قال : يارسول الله ! إنى صاحب إبل . قال : فانحر عن كل واحدة منهن بَدَنَة .

---

(١) الحديث أخرجه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث رقم ١٤١ (طبعتنا) عن جُدَامة بنت وهب الأسدية .

وروى الدارمى[1] فى أوائل مسنده أن رجلًا أتى النبى ﷺ فقال : يارسول الله ! إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان . فكنا نقتل الأولاد . وكانت عندى ابنة لى . فلما أجابت ، وكانت مسرورة بدعائى إذا دعوتها . فدعوتها يوماً فاتبعتنى فمررت حتى أتيت بئراً من أهلى غير بعيد فأخذت بيدها فرديتها فى البئر . وكان آخر عهدى بها أن تقول يا أبتاه يا أبتاه . فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف دمع عينيه . فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ : أحزنت رسول الله ﷺ . فقال له رسول الله ﷺ : كف . فإنه يسأل عما أهمه . ثم قال له : أعد علىّ حديثك . فأعاده . فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته . ثم قال له : إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا ، فاستأنف عملك .

وكان للعرب تفنن فى الوأد . فمنهم من إذا صارت بنته سداسية يقول لأمها : طيّبيها وزيّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها . وقد حفر لها بئراً فى الصحراء . فيبلغ بها البئر فيقول لها : انظرى فيها . ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالأرض.

ومنهم من كان إذا قربت امرأته من الوضع ، حفر حفرة لتتمخّض على رأس الحفرة . فإذا ولدت بنتاً رمت بها فى الحفرة . وإن ولدت ابناً حبسته . وقد اشتهر صعصعة بن ناجية ابن عقال ، جدُ الفرزدق بن غالب ، بأنه كان ممن فدى الموءودات فى الجاهلية ، ونهى عن قتلهن . قيل إنه أحيا ألف موءودة ، وقيل دون ذلك . وقد افتخر الفرزدق بهذا فى قوله[2] :

ومنا الذى منع الوائِدَاتِ وأحيا الوئيدَ فَلَمْ يُوأَدِ

---

(١) أخرجه فى مقدمة مسنده فى : ١ ـ باب ما كان عليه الناس قبل مبعث النبى ﷺ من الجهل والضلالة .

(٢) من قصيدته التى مطلعها :

عرفت المنـــازلَ من مَهْدَدِ كوحى الزبور لدى الغرقدِ

الوحى : الكتاب . والغرقد : ضرب من الشجر دائم الاخضرار .

(الديوان ١/٢٠٢) .

وفى قوله أيضاً[١] :

أنا ابنُ عِقالٍ وابن ليلى وغالبٍ ... وفَكَّاكُ أغلال الأسير المكفَّر[٢]

وكان لنا شيخانِ ذو القبر منهما[٣] ... وشيخٌ أجار الناسَ من كل مَقْبَرِ

على حينِ لاتُحْيَى البناتُ وإذ همُ ... عُكُوف على الأصنام حولَ المدوَّرِ

أنا ابن الذى ردّ المنيةَ فضلُهُ ... وما حسبٌ دافعتُ عنه بِمُمْوِرِ

أَبِى أَحَدُ الغَيْثَيْن صعصعةُ الذى ... متى تُخْلِفِ الجوزاءُ والنجمُ يُمْطِرِ

أجارَ بناتِ الوائدين ومن يُجِرْ ... على القبر ، يعلمْ أنه غير مُخْفِرِ

وفارق ليلٍ[٤] من نساء أنت أبى ... تُعالج ريحاً ليلها غير مُقْمِرِ

فقالت أجر لى ما ولدتُ فإننى ... أتيتك من هَزْلى الحمولةِ مُقْتِرِ

رأى الأرض منها راحة فرمى بها ... إلى خُدَدٍ منها وفى شر مَحْفَرِ

فقال لها نامى فأنت بذمتى ... لبنتك جارٌ من أبيها القَنَوَّرِ[٥]

وروى أبو عبيدة : أن صعصعة ـ هذا ـ وفد على رسول الله ﷺ فى وفد بنى تميم . قال : وكان صعصعة منع الوأد فى الجاهلية، فلم يدع تميما تئدوهو يقدر على ذلك. فجاء الإسلام وقد فدى فى بعض الروايات أربعمائة موءودة ، وفى أخرى ثلاثمائة ، فقال للنبىّ ﷺ : بأبى

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بنى نهشل أبقُوا عليكم ولم تروا ... سوابقَ حامٍ للذِّمار مُشَهَّرِ

(الديوان ٢/٤٧٤) .

(٢) المكفر : هو الذى كفر وكبل بالحديد .

(٣) ذو القبر : غالب كان يستجار بقبره. والذى أجار الناس من القبر وأحيا الوئيدة صعصعة.

(٤) فارق ـ يعنى امرأة ماخضاً. شبهها بالفارق من الإبل وهى الناقة التى يضربها المخاض فتفارق الإبل وتمضى على وجهها حتى تضع .

(٥) القنور : السيىء الخلق .

أنت وأمى ! أوصنى . فقال : أوصيك بأمك وأبيك وأختك وأخيك وأدانيك أدانيك . فقال : زدنى . فقال عليه الصلاة والسلام: احفظ مابين لحييك ورجليك. ثم قال عليه الصلاة والسلام: ماشىء بلغنى عنك فعلته ؟ فقال : يارسول الله ! رأيت الناس يموجون على غير وجه ولم أدر أين الصواب. غير أنى علمت أنهم ليسوا عليه. فرأيتهم يئدون بناتهم، فعرفت أن ربهم عز وجل لم يأمرهم بذلك . فلم أتركهم . ففديت ما قدرت عليه . ويقال إنه اجتمع جرير والفرزدق يوماً عند سليمان بن عبد الملك فافتخرا . فقال الفرزدق : أنا ابن محيي الموتى . فقال له سليمان : أنت ابن محيي الموتى ؟ فقال : إن جدى أحيا الموءودة، وقد قال الله تعالى[1] (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً) وقد أحيا جدى اثنتين وتسعين موءودة، فتبسم سليمان . وقال : إنك مع شعرك لفقيه . نقله المرتضى فى (أماليه) . وبالجملة، فكان الوأد عادة من أشنع العوائد فى الجاهلية ، مما يدل على نهاية القسوة وتمام الجفاء والغلظة .

قال الإمام : انظر إلى هذه القسوة وغلظ القلب وقتل البنات البريئات بغير ذنب سوى خوف الفقر والعار ، كيف استبدلت بالرحمة والرأفة بعد أن خالط الإسلام قلوب العرب ؟ فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها بمحوه هذه العادة القبيحة . انتهى .

ومن أثر نعمته أن صار أدباء الصدر الأول يصوغون فى مدحهن ماهو أبهى من عقود الجمان ؛ فمن ذلك قول معن بن أوس[2] :

رأيت رجالًا يكرهون بناتِهِمْ ... وفيهن ، لا نُكْذَبْ ، نساء صوالحُ

وفيهن والأيام يعثرن بالفتى ... خوادِمُ لا يَمْلَلْنَهُ ونوائحُ

وقال العلوىّ الجمانىّ، فى صديق له ولدت له بنت فسخطها ، شعراً .

قالوا له ماذا رُزِقْتَا ... فأصاخ ثُمَّتَ قال : بنتا

---

(١) [٥ / المائدة / ٣٢] .

(٢) انظر أمالى القالى ، الصفحة رقم ١٩٠ من الجزء الثانى (طبعة الدار) .

وأجلّ من ولد النساء أبو البنات . فلمْ جزعتا
إن الذين تودّ من بين الخلائق ما استطعتا
نالوا بفضل البنت ما كَبَتُوا به الأعداء كبتا

وحكى أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ابنته. فقال : من هذه يا معاوية؟ فقال: هذه تفاحة القلب وريحانة العين وشمامة الأنف . فقال . أَمِطْها عنك . قال : وَلِمَ ؟ قال : لأنهن يلدن الأعداء ، ويقرّبن البعداء ، ويُورِثْن الشحناء ، ويُثِرنَ البغضاء . قال : لا تقل ذلك يا عمرو ! فوالله ما مرّض المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا أعان على الزمان ، ولا أذهب جيش الأحزان مثلهن ، وإنك لواجدٌ خالًا قد نفعه بنو أخته ،وأبا قد رفعه نسل بنيه . فقال: يامعاوية! دخلت عليك وماعلى الأرض شيء أبغض إليّ منهن. وإني لأخرج من عندك وماعليها شيء أحب إليّ منهن. وفى رقعة للصاحب بالتهنئة بالبنت: أهلًا ومهلًا بعقيلة النساء وأم الأبناء وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار ، والمبشرة بإخوة يتناسقون ، ونجباء يتلاحقون(١)

فلو كان النساء كمن وَجَدْنا لفُضِّلَتِ النساء على الرجالِ
وما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عَيْبٌ وما التذكيرُ فَخْرٌ للهلالِ

والله تعالى يعرفك البركة فى مطلعها ، والسعادة بموقعها ، فادّرع اغتباطاً ، واستأنف نشاطاً . فالدنيا مؤنثة. والرجال يخدمونها، والذكور يعبدونها. والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية . وفيها كثرت الذرية . والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجم الثاقب . والنفس مؤنثة وهى قوام الأبدان وملاك الحيوان . والحياة مؤنثة ، ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا عرف الأنام . والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون وفيها ينعم المرسلون . فهنيئاً لك هنيئاً بما أُوتيت،وأوزعك الله شكر ما أعطيت .

(١) قائله المتنبي ، من قصيدته التى مطلعها :

نعدّ المشرفيةَ والعَوالِي وتَقْتُلُنَا المَنُونُ بِلَا قِتَالِ

انظر الصفحة رقم ٢٥٣ من الديوان (طبعة لجنة التأليف) .

ونسخت رقعة لأبى الفرج الببغاء : اتصل بى خبر المولودة المسعودة كرم الله عرقها ، وأنبتها نباتاً حسناً . وما كان من تغيرك عند اتصال الخبر وإنكارك ما اختاره الله لك فى سابق القدر . وقد علمت أنهن أقرب من القلوب ، وأن الله بدأ بهن فى الترتيب فقال عز من قائل[1] : (يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ) وما سماه الله تعالى هبة ، فهو بالشكر أولى، وبحسن التقبل أحرى . فهنأك الله بورود الكريمة عليك . وثمرتها إعداد النسل الطيب لديك .

والنوادر فى هذا لا تحصى . وكلها من بركة الإسلام وفضله ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ)

[١١] (وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ)

[١٢] (وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ)

[١٣] (وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ)

[١٤] (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ)

« وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ » قال ابن جرير[2] : أى صحف أعمال العباد نشرت لهم ، بعد أن كانت مطوية على ما فيها مكتوب من الحسنات والسيئات « وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ » أى قلعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ، كقوله تعالى[3] (يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ) « وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ » أى أوقد عليها فأحميت .

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ٤٨] .

قال قتادة : سعرها غضب الله وخطايا بنى آدم . « وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ » أى قربت للمتقين « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ » أى علمت كل نفس عند ذلك ، ما قدمت من خير فتصير به إلى الجنة ، أو شر فتصير به إلى النار . أى تبيّن لها عند ذلك ما كانت جاهلة به ، وما الذى كان فيه صلاحها من غيره . و (عَلِمَتْ) جواب لجميع ما سبق من الشروط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ)

[١٦] (ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ)

[١٧] (وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)

[١٨] (وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)

[١٩] (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

[٢٠] (ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ)

[٢١] (مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ » أى الرواجع من النجوم . من (خنس) إذا رجع وتأخر . قال الزمخشرىّ : بينا ترى النجم فى آخر البرج ، إذ كرّ راجعاً إلى أوله « ٱلْجَوَارِ » جمع جارية ، من الجرى « ٱلْكُنَّسِ » أى الغيّب التى تدخل فى بروجها ، فى رأى العين . من (كنس الوحش) إذا دخل كناسه وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر . فهو فى الأصل مجاز بطريق التشبيه ، ثم صار بالغلبة فى الاستعمال ، حقيقة « وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ » أى أدبر ولم يبق إلا اليسير ، وذلك وقت السحر « وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ » أى أقبل وتبيّن . أو هبّ نسيمه اللطيف أو انجابت عنه غمة الليل وكربته . تشبيها بمن نفس عنه كربه . قال الإمام : أقسم الله تعالى

بهذه الدرارىّ ليُنوه بشأنها من جهة ما فى حركاتها من الدلائل على قدرة مصرّفها ومقدّرها، وإرشاد تلك الحركات إلى ما فى كونها من بديع الصنع وإحكام النظام ، مع نعتها، فى القسم، بما يبعدها عن مراتب الألوهية ، من الخنوس والكنوس ، تقريباً لمن خصها بالعبادة واتخذها من دونه أرباباً . وفى الليل إذا أدبر زوال تلك الغمة التى تغمر الأحياء بانسدال الظلمة بعدما استعادت الأبدان نشاطها وانتعشت من فتورها . وفى الصبح إذا تنفس بشرى الأنفس بالحياة الجديدة فى النهار الجديد ، تنطلق فيه الإرادات إلى تحصيل الرغبات وسد الحاجات والاستدراك والاستعداد لما هو آت . انتهى .

وجواب القسم قوله تعالى « إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » يعنى روح القدس الذى ينفث فى روعه ﷺ وهو جبريل عليه السلام . والضمير إما للبعث والجزاء ، المفهوم من قوله تعالى (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ) أو للمذكور وهو هذا أو للقرآن « ذِى قُوَّةٍ » أى على تحمل أعباء الرسالة ، وعلى كل ما يؤمر به ، كما تقدم فى قوله[1] تعالى (شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ) « عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ » أى صاحب مكانة وشرف ومنزلة لديه تعالى « مُّطَاعٍ ثَمَّ » أى فى الملأ الأعلى « أَمِينٍ » أى على وحيه تعالى ورسالته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ)

[٢٣] (وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ)

[٢٤] (وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ)

[٢٥] (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ)

« وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ » أى ليس ممن يتكلم عن جِنَّةٍ ويهذى هذيان المجانين .

(١) [٥٣ / النجم / ٥] .

(١)(بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ) وهذا نفى لما كان يبهته به أعداؤه، صلى الله عليه وسلم ، حسداً ولؤماً .

قال الشهاب : وفى قوله (صَاحِبُكُم) تكذيب لهم بألطف وجه . إذ هو إيماء إلى أنه نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن، فأنتم أعرف به وبأنه أتم الخلق عقلاً وأرجحهم نبلاً وأكملهم وأصفاهم ذهناً. فلا يسند له الجنون إلا من هو مركب من الحمق والجنون . ولله در البحترى (٢) فى قوله :

إذا محاسنى اللاتى أدِلُّ بها كانت ذُنوبى، فقل لى كيف أعتذرُ

« وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ » أى ولقد رأى محمد ﷺ جبريل بالأفق الأعلى، المظهر لما يرى فيه .

قال ابن كثير : والظاهر ، والله أعلم ، أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهى الأولى . وأما الثانية وهى المذكورة فى قوله تعالى (٣) (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ) فتلك إنما ذكرت فى سورة النجم ، وقد نزلت بعد سورة الإسراء .

والقصد من بيان رؤيته لجبريل عليهما السلام، متمثلاً له، هو التحقيق الموحى به، وأن أمره مبنىّ على مشاهدة وعيان، لا على ظن وحسبان . وما سبيله كذلك فلا مدخل للريب فيه « وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ » أى ببخيل .

قال مجاهد : ما يضن عليكم بما يعلم . أى لا يبخل بالتعليم والتبليغ . وقال الفراء :

---

(١) [٣٧ / الصافات / ٣٧] .

(٢) من قصيدته التى مطلعها :

فى الشَّيْبِ زجرٌ له لو كان ينزجرُ وبالغٌ منه لولا أنه حَجَرُ

انظر الصفحة رقم ٦٧٣ من الديوان (طبعة بيروت) .

(٣) [٥٣ / النجم / ١٣ ـ ١٥] .

يأتيه غيب السماء، وهو شيء نفيس، فلا يبخل به عليكم. وقال أبو علىّ الفارسىّ: المعنى أنه يخبر بالغيب فيبينه ولا يكتمه ، كما يكتم الكاهن ذلك ويمتنع من إعلامه حتى يأخذ عليه حلواناً .

وقرئ (بظنين) بالظاء : أى ما هو بمتهم على ما يخبر به من الغيب .

قال القاشانىّ : لامتناع استيلاء شيطان الوهم وجنّ التخيل عليه ، فيخلط كلامه ويمتزج المعنى القدسىّ بالوهمىّ والخيالىّ ، لأن عقله صفّى عن شوب الوهم . والمعنى أنه صادق فيما يخبر به من الوحى واليوم الآخر والجزاء، ليس من شأنه أن يتهم فيه. كما قال هرقل[1] لأبى سفيان : وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فزعمتَ أن لا . فعرفتُ أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله .

تنبيه :

قال ابن جرير[2]: وأولى القراءتين فى ذلك عندى بالصواب، ما عليه خطوط مصاحف المسلمين متفقة وإن اختلفت قراءتهم به ، وذلك (بِضَنِينٍ) بالضاد . لأن ذلك كله كذلك فى خطوطها . فأولى التأويلين بالصواب فى ذلك ، تأويل من تأوّله (وما محمد، على ما علمه الله من وحيه وتنزيله، ببخيل بتعليمكموه أيها الناس. بل هو حريص على أن تؤمنوا به وتتعلموه) انتهى . واختار أبو عبيدة القراءة بالظاء لوجهين :

أحدهما أن الكفار لم يبخلوه ، وإنما اتهموه ، فنفى التهمة أولى من نفى البخل .

وثانيهما قوله (عَلَى ٱلْغَيْبِ) ولو كان المراد البخل لقال (بالغيب) لأنه يقال فلان ضنين بكذا وقلما يقال على كذا .

وقال الشهاب : قال فى (النشر) : هو بالضاد فى جميع المصاحف ، ولا ينافى هذا قول أبى عبيدة . إن الضاد والظاء فى الخط القديم لا يختلفان إلا بزيادة رأس إحداهما على الأخرى،

(١) من حديث طويل أخرجه البخارىّ عن أبى سفيان بن حرب ، فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ ـ حدثنا أبو اليمان حديث رقم ٧ .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

زيادة يسيرة ، قد تشتبه . وهو كما قال . ويعرفه من قرأ الخط المسند . وليس فيه اتهام لنقلة المصاحف كما توهم ، لأن ما نقلوه موافق للقراءة المتواترة . ولا بد مما ذكره أبو عبيدة ، لأنهم اشترطوا فى القراءات موافقة الرسم العثمانىّ ، ولولاه كانت قراءة الظاء مخالفة له . انتهى .

قال ابن كثير : وكلتا القراءتين متواترة ومعناها صحيح كما تقدم « وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ » أى من إلقاء الشيطان المطرود عن بلوغ هذا المقام . وهو نفى لقولهم إنه كهانة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)

[٢٧] (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ)

[٢٨] (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ)

[٢٩] (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ » أى أىّ مسلك تسلكون، وقد قامت عليكم الحجة ؟ لا جرم أنكم تنحون الضلال بعد هذه المزاعم فى الوحى ومبلغه . فمن سلك طرقها فقد بعد عن الصواب ، بما لا يضبط ولم يتقرّب إليه بوجه . كمن سلك طريقاً يبعده عن سمت مقصده ، فيقال : أين تذهب .

قال الزمخشرىّ : استضلال لهم ، كما يقال لتارك الجادّة اعتسافاً أو ذهاباً فى بنيّات الطريق : أين تذهب ؟ مثلت حالهم بحاله ، فى تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل « إِنْ هُوَ » أى القرآن المتلوّ عليكم « إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ » أى تذكرة وعظة لهم .

قال الإمام : موعظة يتذكّرون بها ما غرز الله فى طباعهم من الميل إلى الخير . وإنما أنساهم ذكره ماطرأ على طباعهم من ملكات السوء التى تحدثها أمراض الاجتماع. وقوله تعالى « لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ » بدل من (العالمين) . أى إنه ذكرى لمن أراد الاستقامة على الطريق الحق ، بصرف إرادته وميله إليه والثبات عليه . أما من أعرض ونأى ،

فمن أين تنفعه الذكرى ، وقد زاده الران عمى ؟ وقوله تعالى « وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى وما تشاءون شيئاً من فعالكم ، إلا أن يشاء الله تمكينكم من مشيئتكم ، وإقداركم عليها ، والتخلية بينكم وبينها . وفائدة هذا الإخبار ، هو الإعلام بالافتقار إلى الله تعالى ، وأنه لا قدرة للعبد على ما لم يقدره الله عز وجل . فهو خاضع لسلطان مشيئته ، مقهور تحت تدبيره وإرادته .